

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد -أيها الإخوة في الله- فنحن اليوم مع حديث جامع من أحاديث رسول الله ﷺ وهو حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن».

اشتمل هذا الحديث العظيم على ثلاث خصال، وإن كانت الخصلة الأولى شاملة للخصلتين الأخريين؛ ولكنه ذكر خصلتين من باب عطف الخاص على العام للاهتمام بالشأن الخاص.

وقد بدأ الحديث بأمر جامع شامل لجميع أمور الدين؛ أصولاً وفروعاً، عقيدة وعبادة، أخلاقاً وأدباً، أحكاماً ومنهج حياة؛ حيث قال: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة لجميع خصال الخير ولجميع أمور الإسلام؛ إذ أن حقيقة التقوى هي امتثال أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه. حقيقة التقوى أن تستقيم على طاعة الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وهو نظير قول النبي ﷺ: «قل: آمنت بالله ثم استقيم»، ونظير قول الله ﷻ: «فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ» [هود: ١١٢]، وقوله ﷻ: «أَعِدْنَا لِمَنِ اتَّقَى مَصْرَفًا لِلْغَنَى» [الأنعام: ١٥٣]، وغير ذلك من الكلمات والجمل الجامعة في الكتاب والسنة التي تعتبر شاملة لأمر الدين كله، فتقوى الله ﷻ هو أن تقف عند حدود الله ﷻ قولاً وعملاً واعتقاداً لا تتجاوز ذلك.

إذا سمعت أمر الله ﷻ امتثلت، إذا سمعت نهيه ﷻ اجتنبت، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» فعلى المسلم أن يقف عند هذه الحدود، وأن يستعد للقائه الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه، من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله كره لقاءه، فعلى المرأة المسلم أن يكون دائماً سائراً على هذا المنهاج ممثلة لأوامر الله ﷻ مجتنباً لنواهيه وأن يراعي هذا الأمر في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته: «قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢﴾» [الأنعام].

تجهت فيما يُقربك إلى الله ﷻ، وتبتعد عن جميع ما يُسخط الله ﷻ، ولا تجعل للشيطان عليك منفذاً يدخل منه، فإنه قد يدخل من خلال التقصير في الواجبات أو من خلال فعل المحرمات.

وتقوى الله ﷻ تحجبك عن ذلك، كما أنها سبب كل خير وفلاح وكل بر ونجاح، سبب تفريج الكربات وإزالة المُلدات وإقالة العثرات ورفع الدرجات ومضاعفة الحسنات ومحو السيئات، الذي يتقوى الله ﷻ حق تقاؤه ويُراعي ذلك في أقواله وأفعاله فإن الله ﷻ يكلؤه ويرعاه ويحفظه ويحوطه برعايته وعنايته، كما قال الله ﷻ: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢﴾» [الطلاق].

وقال ﷻ: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ أَمْرِهِ ﴿١﴾» [الطلاق]، وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ أَمْرِهِ ﴿١﴾» [الطلاق]، ويقول ﷻ: «وَلِلَّهِ عِاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١﴾» [الحج]، ويقول تعالى: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾» [الأعراف].

تأمل هذا -يا عبد الله- العاقبة الطيبة الحسنة والنتيجة العظيمة والثواب العظيم هي للمتقين المخلصين الممثلين لأوامر رب العالمين والمتعبدين عن كل ما يخالف ذلك، هذا هو الطريق السوي؛ بل الطريق الوحيد الذي يوصلك إلى الله وإلى مرضاته وإلى جناتك، «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُوعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾» [الرعد: ٣٥]، «فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿٢﴾» [محمد: ١٥]، الواقفون عند حدود الله، المبتعدون عن مساخط الله ﷻ ولا سيما عند تكاثر الفتن والمحن والاضطرابات، وكثرة الأقاويل، وكثرة الفتاوى الضالة، وكثرة الانحراف عن صراط الله المستقيم إما بطريق الإفراط أو بطريق التفريط، المُخرج لك من ذلك -يا عبد الله- هو تقوى الله، فإن الله بذلك يحفظك ويكولك ويرعاك، «احفظ الله يحفظك»، «اتق الله تجده تجاهك»، «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله».

تأمل ذلك يا عبد الله، ويسر عليه، واستقم عليه ﴿١﴾ فاستقم كما أمرت ﴿٢﴾ [هود: ١١٢]، أي: كما أمرك ربك وأمرك رسولك ﷺ، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴿١﴾» [الحشر: ١٨]، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُلُوا قَوْلًا سِدْقًا ﴿٢﴾» [الأحزاب]، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿١﴾» [النساء: ١]، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢﴾» [آل عمران]، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٣﴾» [التوبة].

فهلأ وفقا يوماً من الأيام مع أنفسنا تأمل هذه الآيات العظيمة لنر أين موقعنا منها، أم أننا فتننا إماماً بهذه الدنيا ومفاتيحها الزائلة أو بالليل والقال وإطلاق اللسان فيما لا فائدة فيه، الأمر الذي قد يجزئ إلى مساخط الله ﷻ.

فاجتهد -يا عبد الله- بأن تكون متقياً لله في جميع أفعالك وأقوالك وتصرفاتك إلى أن تلقى الله ﷻ، فإنك إن مت على ذلك مت على خير عظيم ومت على عقيدة راسخة ومت على التوحيد؛ لأن أساس التقوى كلها إنما هو توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فطره ﷻ بالعباد؛ تعبده ولا تعبد أحداً سواه، تقف عند حدوده، وتلتزم أوامره وتجتنب نواهيه، بل إن التقوى هي أساس صلاح طالب العلم وعنوان استفادته من علمه الذي تعلمه؛ لأن من أعظم أسباب تحقيقي العلم الشرعي الصحيح المستمد من الكتاب والسنة هي تقوى الله ﴿١﴾ «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴿٢﴾» [البقرة: ٢٨٢].

وبعض من المتسبين إلى العلم -وتخشى أن نكون كلنا واقعون في ذلك- هو إضاعة الأوقات فيما لا فائدة فيه من القيل والقال والكلام الفارغ الذي يُبعد عن الله ويُقيس القلب، وتجذ الكثير من الناس هذا هو شغل الشاغل، ولا يصلي الله ركعة أو ثلاثاً آخر الليل؛ لأن لديه صوارف صرفته عن طاعة الله، وهو لا يدري أنه في دار سفر، في دار مغبر، وفي دار مم، فصل صلاة مودع وكُن في هذه الدنيا كأنك

عابر سبيل، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، اشغل وقتك بتقوى الله، اعمر وقتك بتقوى الله: مِنَ الصَّلَاةِ وَالصُّومِ وَالْعِلْمِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، واشتغل بعبود نفسك عن عيوب غيرك.

نرى بعض طلبة العلم من ضعف تقواهم لا هم لهم إلا الكلام في الناس ونصبوا أنفسهم على ضحالة عليهم أئمة في الجرح والتعديل، وملؤوا زبالات الإنترنت من هذا الباب، وهم لا للإسلام نصراً ولا للكفار كسراً ولا للأمة أفادوا، يحدثكم أحدهم وكأنه يحيى بن معين أو أحمد بن حنبل، وهو ربما لا يعرف كيف يتوصلاً ولا يحسن وضوءه، وهذا ما تعاني منه في هذه الأيام، هذا لا يتفق مع «اتق الله حيثما كنت»، أعط الفوس باربها، وتواضع لله فإن من تواضع لله رفعه، ودعوا المسائل الكبار للعلماء الربانيين المتخصصين البارزين الذين لهم باع طويل في خدمة السنة والعقيدة وفي خدمة الإسلام.

فألذي ينبغي للمسلمين عامة وطلبة العلم خاصة أن تكون تقوى الله ﷻ ديدنهم سراً وجهاراً ولبلاً ونهاراً، إذا أرادوا الوصول إلى السلامة، وإذا أرادوا الوصول إلى مرضاة الله، وإذا أرادوا العلم الشرعي الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، «فاتق الله حيثما كنت».

إذا أردت أن تطلق كلمة تذكر هذا الحديث.

إذا أردت أن تقول كلمة أقر هذا الحديث.

إذا أردت أن تمد يدك إلى شيء تذكر هذا الحديث.

إذا أردت أن تخطو إلى شيء برجلك تذكر هذا الحديث.

إذا أردت أن تجرح أو تعدل تذكر هذا الحديث.

إذا أردت أن تكون طالب علم بحق وإلا فلست كذلك فتذكر هذا الحديث.

اجعله نصب عينك في كل تصرف تتصرفه «فاتق الله حيثما كنت»، ليكن منطلقك إلى أي أمر من فعل أو ترك هو من هذا الحديث «اتق الله حيثما كنت»، ليحرك لسانك «اتق الله حيثما كنت» ليحرك بصرك وجوارحك «اتق الله حيثما كنت»، هذا هو الطريق السوي للسلامة، ولغير ذلك ليس هناك إلا الندامة.

وبالمناسبة فأني أحض طلبة العلم على قراءة كتاب عظيم ألف في هذه الأيام لأخي الشيخ محمد بن عبد الله الإمام وهو بعنوان «الإبانة في التعامل مع الخلاف بين أهل السنة» فإنه كتاب نفيس، لا أرى أنه يجب مثله في هذا العصر، فإنه كتاب نفيس تشئ عليه الخناصر، يُحرص عليه، ووضع النقاط على الحروف، وأورد فيه عن شيخ الإسلام وحده مائة نص في أحكام التعامل مع المخالفين لأهل السنة، وأكثر من أربعمائة نص عن بقية العلماء القدماء والمحدثين.

وهناك مقال جديد لشيخنا الشيخ عبد المحسن العباد البدر بعنوان «ومرة أخرى وفقاً لأهل السنة بأهل السنة» هذه المقولة تهمة طلبة العلم بشكل خاص، ولا تلتفت إلى ما يعلل به أرباب الشبكات الهزيلة التي تلتقط مثل هذا المقال بغلو وكبرياء في أنفسهم وجهل بحقيقة ما يتكلمون به، واتخذوا ألقاباً معينة.

هذا المقال مقال عظيم ينبغي أن ترسم خطاه وأن نسبر على نهجه، وقد أثنى فيه شيخنا حفظه الله على كتاب الشيخ محمد الإمام آيف الذكر.

فاستفيدوا من كتابات العلماء والمشايخ ودعوا عنكم بُنَيَات الطريق.

سافرت إلى إحدى البلدان الإسلامية قريباً -وأرجو أن يرفقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل-؛ ولكن ممّا لاحظته بسبب الاتصالات ببعض صغار الطلاب أن بعض البلدان التي في الخارج تعيش اضطراباً وتمزقاً وتفريقاً بسبب فتاوى صغار الطلاب، وانصرفوا عن العلم بسبب ذلك، اجتهدنا مع الشيخ محمد بن هادي وفقه الله في لمّ الشمل بقدر الإمكان، وصرفهم عن التعلّق بالقلقلة وتلك الفتاوى المفرقة، والجذّ والاجتهاد في طلب العلم قبل فوات الأوان، فمن له صلة منكم بتلك البلدان ولاسيما في بلاد أوربا حيث الأقليات أن لا يشغلوا أنفسهم بتلك الفتاوى وتلك الأقاويل التي وصلت إلى حد تعطيل بعض المساجد في أمريكا وأوربا، بسبب تفرّق الناس، ليتهمّ دعوهم إلى التوحيد، أو إلى هدي الكتاب والسنة؛ لكن شغلهم بالآخرين، ربّما أنهم لا يعرفون حتّى إنّ بعض المبتدعة مغموزون، وربّما أسهمت بعض المقولات أو بعض الفتاوى في إشهار هؤلاء المبتدعة، والله ربّما أسهمت ناهيك عن أقوال في إخوانهم الذين هم على المنهج الحق، لكن أقول: إنهم أحياناً قد يشبهون بعض المبتدعة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وهذا لا يتفق مع «أتق الله حيثما كنت»، أبداً، ليكون منطلقك هو هذا الحديث في كل تصرف تصرفه وفي كل أمر تدعو إليه أو تحذر منه؛ لأنّ هذا هو الطريق السوي لتطبيق هذا الحديث.

ثم قال ﷺ: «وَاتَّقِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»، وقال الله ﷻ: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ غِزَاقُهَا تُسَمَّنُونَ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّكَائِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَّغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ بَحْرَىٰ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجَرَ الْفَكِيلِينَ ﴿٣٥﴾ آل عمران»، ويقول ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأعراف]، ويقول النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». والله ﷻ بعد أن ذكر عدداً من الذنوب وحذر منها وعلى رأسها الشرك قال: «إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ [الفرقان: ٧٠]»، «وَاتَّقِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»، وفي الآية الأخرى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ [هود: ١١٤]»، فعلى من سؤل له نفسه فعل ذنب من الذنوب أو أسرف على نفسه أن يذکر قول الله ﷻ: «قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسُهُمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ [الزمر: ٥٣].

فاجتهد -يا عبد الله- فيما يقرّبك إلى الله، واجتهد في التخلص من الذنوب بالاكثار من العبادات المنيّة على هدي الكتاب والسنة، والتقرّب إلى الله ﷻ بما يرضيه، فإنّ هذا هو العلاج، وافرأ القرآن الكريم، اقرأ كتّيب الرّقائقي التي ألفها علماء أهل السنة، وإياك والرّقائقي التي تعتمد على التصوّف والدجل، والتي لا تتفق مع هدي الكتاب والسنة.

ثم قال في الفقرة الثالثة: «وخالق الناس بخلق حسن» هذه الصلّة العظيمة من أعظم الخصال: التخلّق بالأخلاق الفاضلة، بأخلاق رسول الله ﷺ التي وصفه الله ﷻ حيث قال: ﴿وَإِنَّ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [القلم]، وحثّ أمته عليها بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقال: «خالق الناس بخلق حسن» وقال: «ألا أنبئكم بأقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً» وقال في حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» الفضاضة ليست من صفات المسلمين لا مع الموافق ولا مع المخالف، لا أعني -في مسألة فقه الخلق مع المخالف- ما قد يفهمه بعض الجهلة من التنازل عن الدين أو عن العقيدة أو إلى انتهاك حُرّمات الله ﷻ، وإنما أقصد لبن الجانب الذي أمر الله ﷻ حتّى مع أكبر طاعة في وقته وهو فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [طه].

بعض الناس إذا رأى مقصراً في بعض الأمور يُعرض عليه بوجهه، ويكفه في وجهه، وربّما يكون مصلحاً ويحافظ على الصلّة، صاحب عقيدة صحيحة ابتلي بشيء من المعاصي، هذا ليس بلازم، والهجر له ضوابط تكلمنا عنها مراراً، لكن عليك أن تتطلّق بوجهه كما تطلّق النبي ﷺ بوجهه للذي قال عنه: «بئس أخو العشرة»، لعل ذلك يكون سبباً في هدايته واستقامته وعودته إلى الله ﷻ. يُذكر أنّ المأمون كان يطوف فأغلظ عليه رجل القول بالنصح بأسلوب فيه غضاضة وفيه غلظة، فقال له: يا هذا لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني -ما ادعى لنفسه أنه ليس عنده تقصير، لا- فأمره أن يقول له: ﴿قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ بِهِ يَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [طه].

فانتبه يا عبد الله لهذا التوجيه، وإن أكثر ما يصد عن سبيل الله الفضاضة وسوء الخلق وعدم الاكثار بهدي النبي ﷺ في ذلك. ذكر صفوان ﷺ بعد أن أسلم عن وضعه قبل أن يسلم بأنّه استنظر النبي ﷺ أربعة أشهر لينظر هل يسلم أم لا، يقول: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وكان أبغض الناس ثم أعطاني، ثم أعطاني، ثم أعطاني، كل هذا وهو كافر، وإنّه الآن لأحب الناس إليّ، فإذا كان هذا مع الكفار، وما بالكُم بالتعامل مع من ابتلي بشيء من المعاصي والتقصير. بخلاف من كان قدوة في الشر من المجاهرين الذين يتأثر بهم الآخرون، فهو لاء لهم باب آخر، بعد ذلك يرفع أمرهم إلى من له ولاية لأخذ الحق منهم؛ لكن من ابتلي وهو ليس داعية إلى بدعيته أو معصية فعليّ أن تتلطّف معه وأن تراعي حاله وأن تجتهد في معالجته، اعتبر نفسك كالطبيب وهو كالمريض، يحتاج إلى علاج، يحتاج إلى شيء من الرفق حتّى يرجع إلى الجادة (وخالق الناس بخلق حسن).

فالله الله أيّها الإخوة عامّة وطلبة العلم خاصّة بتطبيق هذا الحديث مع إخوانكم جميعاً، وأن تجتهدوا في فهم هذه النصوص على وفق ما فهمها أهل السنة والجماعة.

وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح، صلى الله وسلم وبارك على نبينا محمداً وعلى آله وصحبه أجمعين.



يا معشر السّالفيين اشتغلوا بما ينفعكم

كلمة

لفضيلة الشيخ

صالح بن سعد السّحيمي

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية الثانية



الشيخ لم يراجع التفريغ